المقالة الأدبية فن بات في مهب الريح

نظرة على كتاب «المقالة الأدبية في العراق» لقيس كاظم الجنابي

تعتبر المقالة فنا من فنون الكتابة خرج من جبة الأدب، ويخلق له أنواعا مختلفة. وتحافظ المقالة الأدبية على طابعها الأدبي، بما هي فن قبل أن تكون ضوابط وقوانين. ولذا فتناول المقالة يبدو هاما في ظل تراجع هذا الجنس الأدبي.

حميد سعيد
كاتب عراقي

أكتب مقالتي هذه، تحت تأثير قراءتي كتاب الدكتور قيس كاظم الجنابي "المقالة الأدبية في العراق، النشأة والتطور". والدكتور الجنابي، باحث جاد وناقد مجتهد وأكاديمي رصين، وهو في كتابه هذا، تناول كل ما له علاقة بالمقالة الأدبية، نشأتها وتاريخها ومصادرها.

الكتاب توسع في كل ما له علاقة بالمقالة الأدبية في العراق، تاريخا وكتبا وكتابا وكتابات، وصحفا ودوريات

وحين تناول كتاب المقالة في العراق لم يغفل الذين تأثروا بهم أو الذين أثروا في تكوينهم المعرفي، ثقافة وأسلوباً، من كتاب عرب أو أجانب، كما لم يغفل أيضاً، تأثير النص التراثي في كتابات بعض كتاب المقالة الأدبية في العراق، حيث أشار إلى المعلمين الكبيرين، الجاحظ والتوحيدي.

المقالة في العراق

الكتاب الذي نحاول في هذه المقالة قراءة بعض ما جاء فيه، يتجاوز عنوانه لينفتح بالقارئ على المقالة الأدبية كجنس أدبي، مع أنه توسع في كل ما له علاقة بالمقالة الأدبية في العراق، تاريخاً وكُتّبا وكتاباً وكتابات، وصحفاً ودوريات، كانت حاضنة من حواضن المقالة الأدبية منذ إطلالاتها الأولى، وظل يتابعها بتأن وموضوعية، حتى أيام الناس هذه، ولَم يقرأ في فصول كتابه، نمطاً واحداً من أنماط المقالة، ليخصه بصفة المقالة الأدبية، بل رصد كل ما يمت إلى فن المقالة، انطباعياً ونقدياً ورحلياً، بما في ذلك نقد الكتب ومراجعتها، ونصوص الحوار بين كاتبين أو أكثر، كما أشار إلى بعض تجارب العمود الصحافي المتميزة وحاول أن يشير إلى ما تتوفر عليه من نسب إلى المقالة الأدبية أو إلى علاقة ما تربطه بها.

وفي سياق هذا التوسع، وهو توسع موضوعي حقاً، وبعيد عن أي تساهل، لم يقرأ تجارب كتاب المقالة ممن كرسوا جل كتاباتهم في حدودها أمثال الدكتور علي جواد الطاهر ومهدي شاكر العبيدي وعبدالجبار عباس وماجد صالح السامرائي ويوسف نمر ذياب وشكيب كاظم وغيرهم، بل توقف عند كتابات شعراء وروائيين وأكاديميين وصحافيين، كتبوا المقالة الأدبية، وممن ذكرهم الدكتور الجنابي في كتابه، حسين مردان وعبدالرحمن مجيد الربيعي ومحيي الدين إسماعيل ومدني صالح وعبدالستار جواد وموسى كريدي ورزاق إبراهيم حسن.

كما أشار إلى كتّاب المقالة، ممن كانت كتاباتهم لها الريادة في هذا الجنس من أجناس الكتابة الأدبية، ومنهم إبراهيم صالح شكر ومحمود أحمد السيد وروفائيل بطي وسليمان فيضي ومير بصري وغيرهم، وحاول المؤلف أن يضيف بعض المقالات النقدية أو بالأحرى حاول أن يكتشف فيها صلة ما بالمقالة الأدبية، كما في بعض كتابات طراد الكبيسي وسامي مهدي وحاتم الصكر وعلي جعفر العلاق وعلي حسن الفواز وغيرهم.

لذا يمكنني القول، إن الدكتور قيس كاظم الجنابي في كتابه، "المقالة الأدبية في العراق، النشأة والتطور" لم يترك ما هو مهم في ما يتعلق بالمقالة الأدبية إلا تناوله أو أشار إليه، وهو في عمله هذا لم يضف إلى ما سبقه من تأليف مهمة عن هذا الموضوع فحسب، بل سدَّ ما فيها من ثغرات وأكمل ما كان فيها من نواقص، ولذلك فالكتابة عن مؤلف موسوعي بالصفات التي أشرنا إليها لا يمكن تناوله بجميع فصوله وتعدد أطروحاته في مقالة صحافية واحدة محددة المساحة، وهذا ما فرض علي أن أحدد تناولي للكتاب بحدود مدخله النظري، عسى أن أعود للكتابة عنه وتناول جوانب أخرى مما تضمنه في مقالة أو مقالات أخرى. قال الدكتور جونسون، عن فن المقالة: هي نزوة عقلية لا ينبغي أن يكون لها ضابط من نظام، هي قطعة لا تجري على نسق معلوم ولم يتم هضمها في نفس كاتبها، وليس الإنشاء المنظم من المقالة الأدبية في شيء.

ويقول عنها أدموند جونس: هي قطعة إنشائية ذات طول معتدل، تكتب نثراً، وتلم بالمظاهر الخارجية للموضوع بطريقة سهلة سريعة ولا تعنى إلا بالناحية التي تمس الكاتب من قريب.

ويقول عنها الدكتور محمد يوسف نجم: المقالة الأدبية، قطعة نثرية محدودة في الطول والموضوع، تكتب بطريقة عفوية خالية من الكلفة والرهق، وشرطها أن تكون تعبيراً صادقاً عن شخصية الكاتب.

مرحلة قلق

أما قيس كاظم الجنابي فيقول إن فن المقالة واحد من فنون المعرفة، ولون من ألوان الثقافة، تطور عن أدب الرسائل بكل أنواعه، السياسية والأدبية والتاريخية والاجتماعية والتجارية، ثم نما وتطور ليأخذ شيئاً من فن الحكاية أو من فن الخطابة، لأنه يعتمد على النثر، أي نثر، أدبي، علمي، تاريخي، جغرافي "مكاني"، أي أنه يعتمد على السرد المعرفي المحمل بأفكار أدبية بشكل خاص، والمقالة ارتبطت نشأتها الحديثة بظهور صناعة الطباعة وبروز الصحافة.

ويعدد المؤلف موضوعات المقالة، بعد تطورها وتحديداً في القرن العشرين، إذ تشعبت وتوسعت وصارت تشمل العديد من الموضوعات، وهي كما يراها، أولا مقالة الصورة الشخصية، التي تعبر عن تجارب كاتبها، وانعكاسات الواقع عليه، نفسياً وفكرياً. ثانيا مقالة النقد الاجتماعي التي تركز على نقد العادات والتقاليد البالية. تليها المقالة الوصفية، وهي التي تعتمد على دقة الملاحظة في وصف ما يراه الكاتب وما يدركه.

أما رابعة المقالات فهي المقالة الرحلية وهي التي تختص بوصف المكان وما يتركه من أثر في نفس الكاتب، وتعني العلاقة بين الموقف والمكان، ختاما بالمقالة الخامسة وهي مقالة السيرة حيث تتناول الشخص في حياته اليومية.

ويطرح المؤلف سؤالا مهما، يفتح باباً على الحوار بشأن مستقبل المقالة ومكانتها في ميدان الكتابة، إذ يقول ما مضمونه: إذا كانت المقالة فناً أدبياً مرتبطاً بالصحافة وتطورها، فهل يمكن أن تستمر على هذا المنوال الذي عرفناها من خلاله، وهل ستتأثر بالمستجدات، الإنترنت، وصحافة الصورة ووسائل الاتصال عبر القنوات التلفزيونية، وهل يستمر حرق المراحل فتصبح المقالة غير ضرورية ويستعاض عنها بالحوار أو الحديث المباشر أو بالصورة المرئية، بعد أن تحول الخطاب الأدبي من التواصل الشفهي ثم بالكتابة ثم السمعي، ثم المرئي، وربما تحول إلى أسلوب وتقنيات أخرى؟

ويحاول أن يجيب عن هذا السؤال المركب، بالقول: إن المقالة أصبحت في مهب الريح وأصبح كاتبها هو الآخر موزعاً بين الصحافة الورقية والصحافة الإلكترونية، كما أن حياة الإنسان أصبحت سريعة وخانقة لا تسمح له بأن يقرأ مقالاً متوسط الطول في مجلة.

وهو يرى أن المقالة الأدبية في مرحلة قلق واضح، على الرغم من مكابرة كتابها ومحاولاتهم التشبث بالزمن، فحين ينشأ جيل جديد مهتم بالمتغيرات الجديدة، ربما يجد من سبقهم خارج ميدانها.

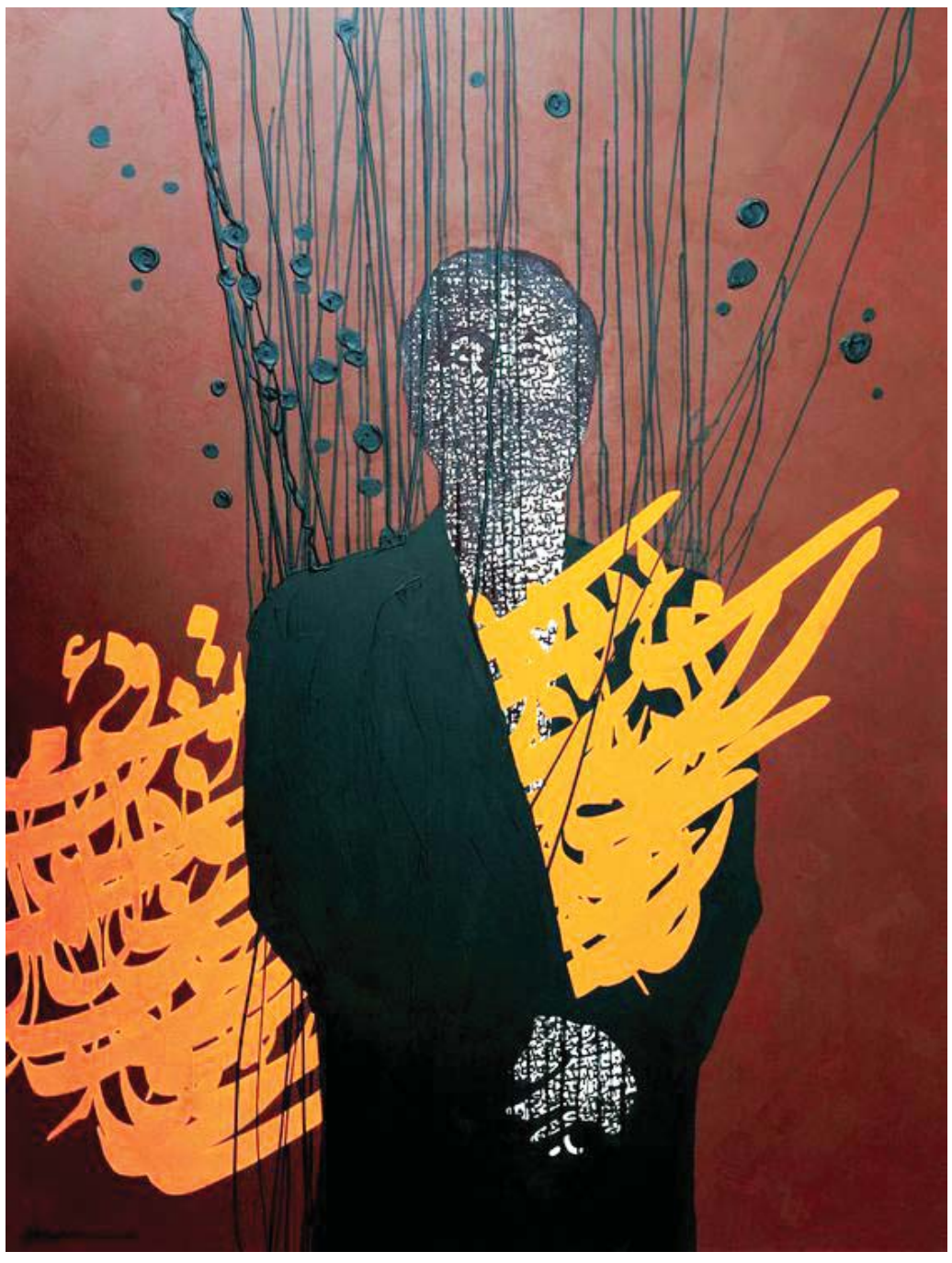

كتّاب المقالات يخفون قلقهم الكبير (لوحة للفنان ساسان نصرانية)

روائي إرتري يكتب عن الحب والمنفى وتجربة الثورة التي تأكل أبناءها

على غرار الرواية السودانية التي رسخت خصوصيتها في المدونة الأدبية العربية، وحققت انتشارا واسعا بما لها من تميز، تسير الرواية الإرترية المكتوبة بالعربية، والتي رغم جهل القارئ العربي بأغلب أصواتها إلا أنها بدأت تأخذ حظوة كبيرة مع روائيين كثيرين رسخوا تجارب مختلفة.

عواد علي
كاتب عراقي

يكاد القرّاء العرب لا يعرفون إلا القليل عن الأدب المكتوب باللغة العربية في إرتريا. ويعزو بعض الباحثين ذلك إلى شح المصادر، والغموض الذي يكتنف كل ما يتعلق بثقافة هذا البلد. فمنذ أن كتب الروائي الإرتري، ومؤسس حركة تحرير إرتريا، محمد سعيد ناود (1926 – 2010) روايته "رحلة الشتاء – صالح"، التي تُعد أول رواية إرترية مكتوبة باللغة العربية، انطلق الإبداع الروائي في إرتريا، لكن بصمت تام وبعيدا عن الإعلام العربي والعالمي، لأسباب عديدة أهمها محاربة الاستعمار الإثيوبي للغة العربية في زمن الاحتلال، كما أن شعار المقاتلين الإرتريين في تلك المرحلة كان "كل شيء من أجل المعركة". أما بعد التحرير فقد استهلك الكتّاب والمثقفون الإرتريون أنفسهم في السياسي واليومي.

إلا أن ذلك لم يحل دون ظهور مبدعين مثل الروائي أبوبكر كهال الذي نشر ثلاث روايات هي "رائحة السلاح"، "بركنتيا"، و"تيتانيكات أفريقية"، والشاعر والمسرحي أحمد محمد سعد صاحب كتاب "عاشق إرتريا" الذي احتوى على ديوان شعري وثلاث مسرحيات.

ومن الأسماء الأخرى نشير إلى الروائيين حجي جابر، ومنصور حامد، والقصاصين جمال عثمان هُمِّد، إدريس سعيد أبعري، عبدالقادر حكيم، سلمون ترقي، حامد ضرار، ومحمد إسماعيل أنقا، والشاعر والروائي أحمد عمر شيخ، والكاتب المسرحي فسهاي يوهنس، والشعراء محمد مدني، بيات فايد، حنان محمد صالح، أحمد عمر شيخ، حنان مران، فاطمة موسى، محمد عبدالحليم حمودة، وغيرهم.

لكن الروائي حجي جابر هو الكاتب الإرتري الأكثر حضورا في المشهد الثقافي العربي الآن، وذلك إثر فوز روايته "سمراويت" بجائزة الشارقة للإبداع العربي عام 2012، وروايته "رغوة سوداء" بجائزة كتارا للرواية العربية في دورتها الخامسة لعام 2019، وله رواية ثالثة بعنوان "مرسى فاطمة".

ومع صدور رواية الكاتب منصور حامد "لعنة وشم" مؤخرا عن دار الآن ناشرون وموزعون في عمّان، يُضاف اسم آخر إلى سجل الرواية الإرترية الحديثة المكتوبة باللغة العربية، وهي ثاني رواية له بعد روايته الأولى "سلالة البؤساء".

تجري أحداث "لعنة وشم" بين إرتريا والسودان في ثمانية فصول، راصدة مواجهة الأفريقي للمستعمر الأجنبي الذي ينتهك الأرض، ويسيطر على مقدراتها وثرواتها، ويطرد أصحابها منها ليعيشوا في المنفى.

تتناول الرواية، التي يمكن وصفها بأنها رواية عن الحب والحرب والخيانة والمنفى والمقاومة وتجربة الثورة التي تأكل أبناءها، حياة اللاجئين ومعاناتهم وبؤسهم، مفتتحة الأحداث بالولادة والموت، حيث تضع المرأة المسيحية "محرت" ابنها "سايمون" وهو يحمل على وجهه وشما يشبه شارة الصليب، لكنها تفارق الحياة عند الولادة بعد نبوءة سمعتها من القس بأن الطفل سيكون له شأن.

ويترك الوالد، سائق الشاحنة، ابنه عند عائلة مسلمة محرومة من الأطفال، فتربيه وتعتني به "نشأ سايمون بكنف وبرعاية خديجة زوجة هاشم، رعته بدلالها وعطفها وحنانها، أعطته كل ما تملك ولم تستبقِ شيئا، وجدت فيه التعويض عن حرمانها من الإنجاب ونعمة الخلفة... وكثيرا ما كان سايمون وصديقه عثمان يترددون مع بقية أطفال الحي لحضور حفلات الزار الحبشي".

ويتقدم "سايمون" على أقرانه في المدرسة، ويظهر علامات نبوغ خلال الدراسة، وما إن يشبّ حتى يتعرف على فتاة اسمها "زينب" تُرغم على الزواج من ثري قريب لها. ثم يلتحق "سايمون" بالثوار، وحين يُصاب القائد ويموت يضطر مساعده إلى إيهام الثوار بأن "سايمون"، هو القائد ولم يصب بأذى للمحافظة على معنوياتهم.

ويواصل الثوار معركة التحرير بقيادة "سايمون"، لكنه يُجرح في المعركة، ويدخل المستشفى الذي تعمل فيه "زينب"، بعد انفصالها عن زوجها الثري، ويلتقيان بلهفة. وعندما تنجح الثورة يجري اختيار "سايمون" رئيسا للدولة، وتذهب "زينب" للقائه، إلا أنه يقابلها بتكبّر وفتور. وبذلك يجسد كاتب الرواية منصور حامد المناخات الانتهازية التي تعاني منها الثورات التحررية، وتتحول فيها الضحية إلى جلاد.

كما يصور خلال أحداث الرواية الطقوس التي تعيشها المجتمعات الأفريقية وأساطيرها وخرافاتها وحكاياتها المدهشة، والمثيرة بأجوائها الغرائبية الساحرة، مضمنا إياها نصوصا تحتوي على مفردات محلية مما هو متداول في الحياة اليومية في السودان وإرتريا، والتي تعود أصولها إلى العربية الفصيحة.

الرواية ساحرة بأجوائها السردية، التي تنفتح على فضاءات وقضايا ربما يجهلها القارئ العربي، وتوثق مرحلة من تاريخ المنطقة، وتحولاتها المأساوية، ومعاناتها المختزنة في صدور أهلها ووجدانهم.

يشار إلى أن منصور حامد من مواليد إرتريا عام 1970، وقد صدرت روايته الأولى "سلالة البؤساء" باسم "منصور سعيد" عن دار سما في القاهرة، وشارك في ورشة لتقنيات كتابة الرواية أدارها الروائي السوداني أمير تاج السر.

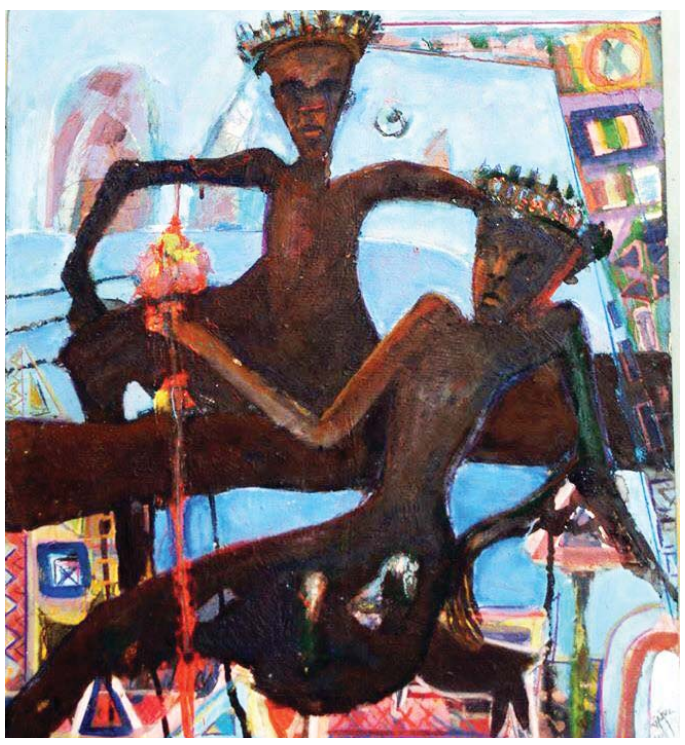

رواية من عمق أفريقيا المجهول (لوحة للفنان معتوق بوراوي)